التاريخ الأوروبي وتاريخ أوروبا

د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

للوهلة الأولى يشعر القارئ بأن المصطلحان عنوان هذا المقال يتشابهان إلى حد كبير، بحيث يصعب التمييز بينهما. وربما يكون ذلك حقيقة، ولكن هذه محاولة بقدر الاستطاعة لكي نميز بين دلالتيهما، لتحقيق فهم أعمق لـ "التاريخ الأوربي" بصفته فرع من فروع التاريخ.

وبادئ ذي بدء، لابد أن نوضح أن الآراء قد اختلفت وتعددت حول ماهية التاريخ وأهميته، واهتم المؤرخون بذلك الأمر، ودليلنا على ذلك قيام عدد كبير من المؤرخين بتناول تفسير التاريخ من حيث معناه وأهميته وتفسير حركته ومسيرته، وذلك من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وغيرها.

واختلف المؤرخون العرب أيضًا في تفسير التاريخ، فمنهم من ذكر أنه سجل لكل ما تركه الإنسان من آثار نتيجة لتفاعله مع البيئة المحيطة به، مشتملاً على كافة نواحي الحياة، وقصر بعضهم معنى التاريخ على "بحث واستقصاء حوادث الماضي".

وقد طُرح سؤال حول ماهية التاريخ الأوروبي على مجموعة من المؤرخين والأساتذة في الجامعات الأوروبية والأمريكية، واختلفت الإجابات فكل مؤرخ يعرض إجابته وفقًا لوجهة نظره الخاصة، ووفقًا لبعض الظروف التي إن وجدت استطاع أن يجيب عن هذا التساؤل، ولهذا وجدت مجموعة من الآراء تمثل رأي المؤرخ وفكره.

وقبل أن نوضح الفروق بين التاريخ الأوروبي وتاريخ أوروبا، يستوجب الأمر أن نشير إلى أن أي حادثة تاريخية تقوم على ثلاثة دعائم هي: الزمان والإنسان والمكان، ولا يمكن تصور ظاهرة تاريخية خارج حدود هذه الدعائم الثلاثة، فالزمان هو الذي يجعل للحادثة التاريخية صفتها التاريخية، ومن المستحيل تمامًا تصور أي حادثة تاريخية خارج نطاق الزمن، والزمن الذي نعنيه هو الزمن الإنساني أي عمر الجنس البشري فوق كوكب الأرض، ذلك لأن الفعل التاريخي في حقيقته فعل إنساني وقع داخل حدود الزمن الإنساني، وارتباط التاريخ بالزمن يتضح من خلال الحقيقة القائلة: إن الماضي الحضاري لبني الإنسان على سطح الأرض هو موضوع علم التاريخ.

أما المكان أو البيئة فهي الركن الثاني من أركان الظاهرة أو الحدث التاريخي؛ لأن البيئة هي مسرح العملية التاريخية؛ فلا نستطيع تصور وجود الفعل التاريخي في فراغ بعيدًا عن المكان أو البيئة، فالتفاعل بين الإنسان والبيئة في إطار الظرف الزماني هو الذي يُنتج لنا الظاهرة التاريخية في أي عصر من العصور، ذلك لأن الإنسان هو منفذ العملية التاريخية ما دام ميدان التاريخ ومجال بحثه هو ماضي النشاط البشري، فالارتباط بين الإنسان بوصفه فاعلاً تاريخيًّا؛ والتاريخ الذي يهتم بدراسة الفعل الإنساني ومحاولة تفسيره يبدو في غاية الوضوح، وليس بوسعنا أن نتصور وجود ظاهرة تاريخية لا ترتبط بالإنسان؛ فذلك لن يكون تاريخًا بالمعنى المقصود، وإنما سيكون نوعًا من التاريخ الطبيعي الذي يختلف تمام الاختلاف عن التاريخ كعلم الإنسان؛ فالتاريخ يميل إلى حفظ كل ما له قيمة بالنسبة لبني الإنسان ويترك ما عدا ذلك للفناء والهلاك.

وعلى هذا فإن الحدث التاريخي يتكون من ثلاث عناصر رئيسية هي وجود الإنسان في مكان ما، وزمان معين، وهذه العناصر الثلاث الإنسان والزمان والمكان تتفاعل مع بعضها البعض فتنتج الحادثة التاريخية، وهذا الحدث يحتاج إلى منهج وكذلك مؤرخ لكي يصبح مادة تاريخية مكتوبة خاضعة للنقد والتحقيق. ولابد أن يكون هناك منطقة يستمد منها الحدث التاريخي ماهيته، أو يحدث على أرضها، فالحدث التاريخي بدون تحديد منطقة

لحدوثه يفقد تفاعله مع الإنسان، ولهذا كانت الاختلافات في تحديد خريطة أوروبا عبر العصور المختلفة عائقًا أمام تحديد التاريخ الأوروبي، لأن أوروبا لم يكن لها شكل واحد، فهي كمساحة جغرافية لم تكن بشكل ثابت على مر العصور، فهي مرة تتوسع، وأخرى تتضاءل.

والتاريخ الأوروبي هو تاريخ الأوروبيين على الأرض الأوروبية وفي كل قارة نزلوا فيها، وفي كل بقعة من الأرض استعمروها، وفي أي مكان تواجدوا به، فلا يمكن فهم تاريخ أي دولة أوروبية سواء فرنسا أو بريطانيا أو غيرها من الدول بمعزل عن التاريخ الأوروبي وتاريخها الاستعماري خارج أوروبا؛ فضلاً عن تاريخ العلاقات الدولية، على أساس العلاقات بين أوروبا والدول الأخرى في جميع نواحي الحياة. وعلى هذا النحو فإن التاريخ الأوروبي هو تاريخ الأوروبيين داخل أوروبا وكذلك تاريخهم خارجها إلى حيث يصنع الأوروبيون التغيير في الحياة اليومية، بمعنى أنهم إذا وجدوا في أي بلد آخر فإنهم يعدون جزءًا من التاريخ الأوروبي أيضًا. وعلى ذلك فإن التاريخ الأوروبي أعم وأشمل من تاريخ أوروبا.

وأصحاب هذا التفسير يبنون رؤيتهم على أساس أن الفرد يمارس ثقافته في أي مكان ينزل فيه، ويستوطنه، وينقل معه عاداته وتقاليده، وفكره، ومن نتاج هذا التفاعل تبرز الحضارة، فالإنسان عندما ينتقل من مكان لآخر فهو ينقل ثقافته معه، وعلى هذا يكون التاريخ الأوروبي هو تاريخ الأوروبيين أينما كانوا وأينما حلو، والمؤثرات التي أثرت فيهم، ودورهم في التأثير في الآخر.

فنجد أن الإنسان عند وجوده في أي مجتمع فإنه يؤثر في هذا المجتمع ويتأثر به، فمثلاً الاحتلال الفرنسي للجزائر ترك بصمته الواضحة عليها، فقد أثر فيها وتأثر بها، ولذا فنحن نجد الآن أن الشعب الجزائري يتحدث الفرنسية بطلاقة، وكذلك نجد أنه عند ذهاب أي شخص إلى بلد ما فإنه يحاول التكيف معها ومع عاداتها وتقاليدها بما لا يتعارض مع مفاهيمه وديانته، فالإنسان يؤثر ويتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، وبالبيئة التي تحيط به.

أما تاريخ أوروبا فيقصد به تاريخ الأرض (القارة الأوروبية) والبشر الذين يعيشون عليها فقط، والتفاعلات التي جرت عليها؛ دون النظر إلى امتدادهم خارج الأراضي الأوروبية، أي أنه نتاج تفاعل الناس في أوروبا مع الأرض الأوروبية في الزمان، فهو بذلك محدد جغرافيًّا وبشريًّا. فيقصر المؤرخون تاريخ أوروبا على تلك المنطقة من الكرة الأرضية التي تضم دول المجموعة الأوروبية،

أي حادثة تاريخية تقوم على ثلاث دعائم هي: الزمان والإنسان والمكان، ولا يمكن تصور ظاهرة تاريخية خارج حدود هذه الدعائم الثلاثة

والتاريخ الأوروبي هو تاريخ الأوروبيين على الأرض الأوروبية وفي كل قارة نزلوا فيها، وفي كل بقعة من الأرض استعمروها، وفي أي مكان تواجدوا به، فلا يمكن فهم تاريخ أي دولة أوروبية سواء فرنسا أو بريطانيا أو غيرها من الدول بمعزل عن التاريخ الأوروبي وتاريخها الاستعماري خارج أوروبا

ويقصدون بتاريخها تاريخ التجمعات الإنسانية التي تعيش عليها وتعمرها، ونتاجها الثقافي والفكري والأثري.

ولكن أصحاب هذا الاتجاه وجدوا أنفسهم في حيرة حول المعنى الحقيقي للمنطقة المسماة أوروبا، لذلك اختلف المؤرخون حول المعنى الحقيقي لتاريخ أوروبا، فبعضهم اعتمد على عامل الزمان، بينما ركز بعضهم على عامل المكان، وبما أن التاريخ الأوروبي هو في مجمله تاريخ، فإنه لابد أن يكون نتيجة لتفاعل الإنسان مع المكان في وجود عامل الزمان.

وفيما يخص عامل الزمان، فإن القارة الأوروبية قد اختلفت من قرن إلى آخر، فالهند كانت مستعمرة بريطانية خاضعة للتاج البريطاني، كذلك الأمريكتين كانت مستعمرة لعدد من الدول الأوروبية، لكن حينما نالت أمريكا استقلالها فإن مساحة أوروبا قد تقلصت عن الأحقاب السابقة.

أما عن عامل المكان، فقد اختلف معنى التاريخ الأوروبي تبعًا لإختلاف المكان، فنجد أن حدود القارة الأوروبية متغيرة، فهي لا تشمل الدول الداخلية في القارة فقط، وإنما تشتمل على مستعمراتها الأوروبية في الخارج مثل الهند التي كانت مستعمرة بريطانية خاضعة للتاج البريطاني، وبالتأكيد تأثرت الدول الأوروبية بالدول التي قامت باستعمارها، فنجد أنها تأثرت ثقافيًا وحضاريًا بتلك الدول فنقلت حضارتهم إليها مثل حضارات الفنيقيين والعبرانيين والمصريين الفراعنة وغيرهم.

كذلك نجد أنه مع زيادة عدد البلدان التي تحررت من الاستعمار، والتي بدأت تبحث عن أصولها وجذورها، بدأت تنهار فكرة تاريخها الأوروبي والتي لم تكن سوى جزء من أوروبا، وبأعين الأوروبيين، وذلك يعني أن الدول التي كانت تابعة لأوروبا، والتي كانت تشكل التاريخ الأوروبي في وقت معين حين استقلت عن أوروبا، أعيد تشكيل خريطة أوروبا من جديد، وتاريخ أوروبي جديد، ليس به تلك المستعمرات، وهو ما يوضح أن التاريخ الأوروبي اختلف من حقبة تاريخية إلى أخرى تبعًا لعامل المكان أو تبعًا للمساحة التي كان ينظر إليها على أنها جزء من القارة الأوروبية.

وذهب البعض إلى أن التاريخ الأوروبي ممكن أن يتطابق مع تاريخ أوروبا الذي هو تاريخ الشعوب الأوروبية وثقافتها والأراضي التي يحتلونها، واختلف البعض مع هذا الرأي فيرون أنه إن كان هناك تشابه أو تطابق بين اللفظين، فإن هناك اختلافًا كبيرًا في مفردات كل من التاريخ الأوروبي وتاريخ أوروبا على أساس أن تاريخ أوروبا هو تاريخ القارة الأوروبية جغرافيًا والبشر الذين يعيشون عليها، أما التاريخ الأوروبي فهو تاريخ الأوروبيين سواء كانوا على أرض أوروبا أم لا متضمنًا الشعوب والأراضي التي بقيت مرتبطة باستمرار بأوروبا.

ومن هنا نرى أن التاريخ الأوروبي ينظر إلى أوروبا

ولم تكن المصادر الروسية حتى نهاية القرن السادس عشر تعرف أوروبا، ولم تشر إلى أوروبا باسمها، وكانت تعرفها بالبيزنطيين نسبة إلى بيزنطة، ولم يقم البيزنطيون باطلاق هذا المسمى عليهم، وإنما أسماهم به من جاء بعدهم، وكانت الحدود بين الروس وجيرانهم حدود دينية وضعوها حاجزًا بينهم وبين جيرانهم من هراطقة في الغرب، ووثنيين في الشرق

وعلاقاتها مع غيرها، فنجد أن التاريخ الأوروبي لم يكن سوى تاريخ يرى فقط بأعين أوروبا وبرؤية أوروبية للتاريخ، وخدمته كل القيم التي استخدمت كأساس للحكم، وهي مجد الدولة، والدين الشامل، وفكرة التقدم التي ارتبطت بأوروبا في إشارة إلى تفوقها وسيادتها.

ومن هنا ارتبطت فكرة التاريخ بالمؤسسات الاجتماعية التي وقع عليها حكم المجتمع مثل الكنيسة والدولة والحزب السياسي، فالتاريخ هنا يخدم قضية أو مشاريع أولئك الذين يمثلهم، في محاولة لمقارنة ماضي وحاضر الدول الأوروبية مع المجتمعات الأخرى.

ويرى آخرون أنه ليس هناك تاريخ أوروبي واحد وإنما تواريخ كثيرة كل منها يتعلق بمشكلة محددة أو سياق محدد ولذلك يجب التمييز بينه من النواحي الجغرافية والزمانية، فمثلاً المؤرخين البريطانيين يرون أن التاريخ الأوروبي هو تاريخ القارة الأوروبية فقط ولا يشمل بريطانيا الجزيرة المنعزلة عنها جغرافيًا، أما مؤرخي القارة الآخرين فيرون أن التاريخ الأوروبي يشمل بريطانيا العظمى التي لم تكن تغيب عنها الشمس أيضًا. وينظر هؤلاء إلى الولايات المتحدة على أنها مجرد امتداد للتاريخ الأوروبي.

أما المؤرخون الروس فقد كانت أوروبا هي المعيار الذي قيم به الروس أنفسهم، وكان واجبًا على المؤرخ الروسي أن يدرس ويفهم الظروف الأوروبية وثيقة الصلة بروسيا في وقت معين، فيما يتعلق بقضية معينة، وهذه الرؤية توضح أن الشيء ذو الأهمية لروسيا ليس بالضرورة أن يشكل أهمية بالنسبة لأوروبا.

ولم تكن المصادر الروسية حتى نهاية القرن السادس عشر تعرف أوروبا، ولم تشر إلى أوروبا باسمها، وكانت تعرفها بالبيزنطيين نسبة إلى بيزنطة، ولم يقم البيزنطيون باطلاق هذا المسمى عليهم، وإنما أسماهم به من جاء بعدهم، وكانت الحدود بين الروس وجيرانهم حدود دينية وضعوها حاجزًا بينهم وبين جيرانهم من هراطقة في الغرب، ووثنيين في الشرق، إلا أن هذه النظرة قد تغيرت منذ منتصف القرن السابع عشر حيث أقامت موسكو علاقات تجارية ودبلوماسية وثقافية قوية مع الدول الأوروبية، وبصفة خاصة مع بولندا وألمانيا والسويد وإنجلترا وهولندا وإيطاليا، وأشاروا إليها في عهد بطرس الأكبر (1689-1725) "أوروبات" ويظهر من اللفظ إدراكهم للتنوع والاختلاف، وحاول المفكرون الروس الإبتعاد بروسيا عن الإطار الأوروبي، والاتجاهات الفكرية الأوروبية.

وجهود المفكرين الروس للابتعاد عن الإطار الأوروبي بأفكاره وافتراضاته الفكرية تأثرت بنفس الاتجاهات الفكرية الأوروبية التي يرغبون في الإبتعاد أو الانفصال عنها، ولهذا لم ينظر الروس إلى أنفسهم على أنهم جزء من أوروبا، ولم ينظر الأوروبيون إلى الروس على أنهم جزء من أوروبا، وكانت منطقة البلقان والبحر المتوسط في النصف الثاني من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر تمثل أطراف أوروبا.

والتاريخ الأوروبي يحتوي على ثلاث معطيات تتمثل في تحديد أوروبا من الناحية الجغرافية بحدود القارات الحالية، وأن كل دولة معاصرة لها تاريخ، وأن التاريخ الأوروبي جوهر هذه التواريخ القومية، وتواريخ الدول الصغيرة.

وعلى ذلك يمكن تحديد أوروبا من الناحية الجغرافية باستخدام الحدود الحالية للقارات، وهذه النظرة تفترض أن كل دولة معاصرة في أوروبا لها تاريخ، والتاريخ الأوروبي هو جوهر هذه التواريخ القومية للدول الصغيرة، كذلك فالتاريخ الأوروبي هو تاريخ ارتقاء أو تدهور العالم الغربي، وذلك يعني أن أوروبا في وقت اتساعها وقوتها وضمها لبلاد مختلفة تختلف عن أوروبا الضعيفة التي فقدت مستعمراتها.

ويمكن تحديد أوروبا من الناحية الثقافية على أنها تقليد حضاري، والتاريخ الأوروبي هنا هو تاريخ ارتفاع أو تدهور العالم الغربي، وهنا نجد ترابط بين النواحي الثقافية والحضارية، وذلك على أساس أن النواحي الثقافية تتعلق بالأشخاص وكيف يفكرون، وكيف يتعاملون مع الآخرين، أما الحضارة فهي المنتج الذي يفرزه هذا التفاعل.

ونستخلص مما سبق أن مفهوم التاريخ الأوروبي قد اختلف من حقبة زمنية إلى أخرى، فأوروبا العصور الوسطى تختلف عن أوروبا الحديثة، حيث تغيرت معالمها بتغير مستعمراتها في الخارج، حيث أثرت فيها وتأثرت بها، وتختلف عن أوروبا المعاصرة بعد انهيار أيديولوجياتها الإستعمارية في الخارج، وتقلص مساحتها لتقتصر على القارة الأوروبية الصغيرة، وعلى هذا فإننا نرى أن حدود القارة الأوروبية المتغيرة قد أثرت في تفسير مفهوم التاريخ الأوربي، وأثرت في تغيره من مدة زمنية إلى أخرى.

ونخلص من هذا أنه لا يمكن دراسة تاريخ أي دولة أو منطقة بمعزل عن تاريخ أوروبا، وعلى هذا فإن التاريخ الأوروبي هو تاريخ الأوروبيون في أي مكان سواء في القارة الأوروبية أم في أمريكا أو أفريقيا أو آسيا.

المسافات لم يشغلها وميض الفرح

علي سُليمان الدُّبعي - اليمن - تعز

تسافرُ وأنت لم تبارح ظلك
تسافر وأنت الذي من لهيب الفراق اكتويت
وتأبى البقاء على شرفة الوقت المريح
(فؤادك لن تستقر به الأُغنيات)

تستظل بحر التردد
وينهش فيك الندم
ويهتف فيك النداء البعيد
تحاول أن تخرق الضوء
وتحرق خُطاك الطريق
وتبقى كما أنت رهين الشتات
ليكبر فيك الضياع
وتخبؤ جذوة الأمنيات

أيا دنيا مابيننا ؟
سوى ساعة الاحتضار لعمر الحياة
موصدُ بالفراغ
والمسافات لم يشغلها وميض الفرح

كم مرةً وهبتك الرياح
أريج شذاها من زهرة الأُقحوان
أُنثاك التي عصرتها سُكرًا
وسافرت بها مع الذكريات

وقالوا : أنت كطرفة
تحمل رسالة موتك
فلم تستجب ولم تلتفت لنصل السهام

وسفك دمائك لأجل ماذا؟!
لأجلها أم لكبرياء جنونك؟
إذًا أنت قتيل جنونك
شهيد الهيام

وفي شهقة موتك
حمائم روحك توزع الأُغنيات
وتنبتُ على مشارف قبرك
زهرتا أقحوان

ظل الإنسان.. شعائر سوداء

د. هاني حجاج - مصر

كاتب ومترجم

... وبعد مدة من الزمان (تطول أو تقصر)، يعود الميت مرة أخرى ليقض مضاجع الأحياء" هكذا كانت التصرفات الغريبة في أماكن مثل جبال "الهيمالايا" وبين قبائل "الليبو" و"الشربا" تعزى جميعًا إلى عالم خاص، عالم مجهول شديد الغموض.

الميت العائد حسبما يؤمن القوم في شعب "الليبو"، هو الإنسان عندما يموت ميتته الطبيعية، فإن "الشامانى" (الذي يؤدي شعائر الدفن) يذهب في صحبة هذا الميت إلى العالم الآخر ... ويعتقد أهل "الليبو" أن هذا العالم يقع إلى الغرب من عالمهم إلى جانب الشمس والقمر، وبالرغم من هذا فإن ضوؤهما لا يخفي هذا العالم، بل إن ضوؤهما يسطع خافتًا إلى جواره ...

وفي نهاية رحلته يصل "الشامانى" بالميت إلى منطقة البحيرات، ليغرقه في بحر الدموع، الذي يمتد وراءه أول حد لقرية الموت، وهناك ينادي على الأسلاف البادية ظلالهم على الصفة الأخرى، و... ويطلب منهم أن يعتنوا به ... وفي هذه الأثناء، تتعلق به بعض الأرواح، وتصاحبه إلى عالم الأحياء ... عالمنا.

على أي حال فإن هذه الطقوس ليست سرية تمامًا بالنسبة للأحياء هناك، إذ إن هذه الشعائر تؤدى أمام أهل القرية الذين يتجمعون في منزل الفقيد.

ويعيش كل سكان القرية في منازل صغيرة، ويقيم حديثو الموت في مساكن تشبه مساكن "الليمبو" هذه الأيام، أما الموتى منذ مدة طويلة فإنهم (بطبيعة الحال) يعيشون في منزل كبير نسبيًا.

وفي المقابلات التي توالى إجرائها مع شيوخ القبيلة هناك وأشهرهم "تارابيه" الذي أدعى أنه قد بلغ قرية الموتى هذه في عالم الأحياء، وإمعانًا في تصديق ما يقول يروي الحلم بتفاصيله الدقيقة، فيقول: «إن الموتى هناك يلبسون عمامة ورداء من القماش زاهي اللون، أما الحقول فسوداء اللون تمامًا!!» وبالطبع، فإن هذه الأقوال تضاربت إلى حد كبير في كل شيء.

فلماذا يعود هؤلاء الموتى لتنغيص حياة الأحياء؟

لعل تفسير هذا يمكن في كون بعض هؤلاء الموتى لا يستطيعون بلوغ قرية الموتى هذه إطلاقًا وإنما يبقي معلقًا في رحلة الـ "ما بعد" الذي لا يستطيعون استكمالها إلى قرية الموتى ...

في "ليبانج" ظهرت إحدى الحالات، وذلك عند ما نسي أهل الدار قطة داخل الدار التي أغلقت في ليلة التهجد على جثمان الجدة المتوفاة، هذه القطة راحت تتمسح في الجسد المسجى، فعلت هذه القطة نجست الجسد المتوفى، مما جعل هذه الجدة لا تصل أبدًا إلى مرحلة الأسلاف.

ونادرًا ما تحدث مثل هذه الحالات، فقد جرت العادة أن الميت يصل إلى منتهاه في قرية الموتى، وذلك بفضل الأحياء الذين يوفون بالعهد دائمًا.

الشامانى في زعم البدائيين هو كالعراف أو الطبيب، إلا أن الفارق هنا أن دور الشامانى يبدأ بعد أن يموت المريض أو الشخص المعني بالعناية، والنشاط الشعائري ليس هو النشاط الوحيد الذي يمارسه الشامانى، فهو يتاجر بخدماته في التطبيب ليكسب قوته كأي فرد في المجتمع، وفي الحقيقة فإن معايير التقاليد هناك تتطلب ألا يطمح الشامانى في الربحية طالما أن روحه الحارسة تطالبه بأن يكون زاهدًا، أما بالنسبة لمركز الشامانى الاجتماعي فقد انحط على مرور الزمن خصوصًا بعد اعتناق الإسلام.

والشامانى مثل العديد من المهن يمكن أن يكون رجلاً أو امرأة، فالشامانيون في شعوب الأوزبك والتادجيك يغلب عليهم أن يكونوا من النساء، وبالنسبة للقوقازيين، والتركمان، والقرغيز، والكاركلباك، والأوجر فيغلب عليهم أن يكونوا رجالاً، ومرة أخرى فإن دخول الإسلام – الذي حد من انتشار النشاط الاجتماعي للشامانية هو الذي أدى إلى أن يقتصر النشاط الشامانى تقريبًا إلى محيط المرأة.

أما الأدوات التي يستخدمها الشامانى، فإنه يرتدي ثيابًا بيضاء غالبًا (على الأقل أثناء تأدية الشعائر) وبعض الشامانيين الرجال يحبون ارتداء أزياء النساء (وهذه العادة كانت منتشرة في واحة خوارزم ووادي فيرجانا)، ويمكن تفسير عادة التخنث في الثياب هذه (التي يعود تاريخها إلى الحقبة السقيتية) بالمعتقد القديم الذي كان سائدًا في آسيا الوسطى بأن الروح الحارسة للشامانى كانت أنثى في الأصل، لهذا فإنها تحب أن ترى نفسها وهي محتواة في الشامانى (في المظهر الخارجي على الأقل)، هذه الفكرة يعارضها باحثون مثل "بوجوراس" و"سترانبرج" الذي يعتقد بوجود علاقة جنسية بين الشامانى وروحه الحارسة.

شامانى يقوم بأحد الطقوس

والشامانى يحتاج في عمله إلى آلة موسيقية، إنها آلة تشبه الطبلة، تخترق جلدها فتحات صغيرة لاستقبال الأرواح التي يستدعيها الشامانى أثناء أداء الشعيرة.

ويستخدم الشامانى أداة تشبه السوط يستخدمها في طرد الأرواح التي سبب أذى للمكابدين، أما العصا والخيرزانة التي كان يستخدمها الشامانى من قبل فلم يعد يستخدمها إلا الدراويش.

ومع شعائر معينة يستخدم الشامانى مرآة، ودلوا ممتلئ بالماء، كما أنه يستخدم في بعض الأحيان – كنتيجة لتأثير الإسلام – المسابح وكتب الصلوات (التي لا تقرأ، بل ولعلها لا تفتح من الأصل في أغلب الأحوال).

والشامانى يقيم مذبحًا صغيرًا يحتفظ فيه بأدواته والأطعمة التي يقدمها إلى الأرواح، ولذلك يحجز منطقة شديدة الخصوصية في حالة طهارة شعائرية وذلك كي تستخدمها الأرواح التي يعتقدون إنها ترتبط بمصير عائله الشامانى.

وعمليات الرصد البحثية تجد أن لجلسة تحضير الأرواح الشامانى معني واضحًا بالنسبة للمشاركين فيها، لأنها تمثل رحلة الشامانى إلى العوالم الأخرى بحثًا عن روح المكابد، أو زيارة روح يتوقعون منها المساعدة، أو في البحث عن روح شريرة والمحاولة في التخلص منها.

والمعلومات المتاحة الآن تؤكد وجود حاجات اجتماعية

هذه الطقوس ليست سرية تمامًا بالنسبة للأحياء هناك، إذ إن هذه الشعائر تؤدى أمام أهل القرية الذين يتجمعون في منزل الفقيد.

الشامانى في زعم البدائيين هو كالعراف أو الطبيب، إلا أن الفارق هنا أن دور الشامانى يبدأ بعد أن يموت المريض أو الشخص المعني بالعناية، والنشاط الشعائري ليس هو النشاط الوحيد الذي يمارسه الشامانى، فهو يتاجر بخدماته في التطبيب ليكسب قوته كأي فرد في المجتمع.

معينة كانت السبب في ظهور الشامانية، وليس على خصائص نفسية معينة لعدد محدود من الأفراد، واختيار المرشحين محدود بصفات معينة، مثل أن يعرف كيف يغني؟ وكيف يدق على الطبل؟ وأن يملك كامل السيطرة على جسده، وأن يتسم بالحساسية وخفة اليد وثقة زائدة بقدراته الخاصة وأن يكون متأكدًا من مساندة الروح الحارسة له قبل أن يضع هذه القدرات موضع الاستخدام.

والشاماني يبدأ مهمته بالسقوط في غيبوبة هي أقرب إلى حالات الهياج، نوبات التشنج يعتقدون أنها تطور طبيعي ومنطقي من إملاء الروح الحارسة، ثم يبدأ ابتهالاته الشامانية، وهي مزيج عجيب من الموسيقي والشعر والمقامات، ويؤمن الأوزبك أن موهبة الشاماني الفنائية هي من تأثير الأرواح، وأن منشد الشعر الملحي "ماناس" هو الذي يعلمه هذا الفن في الأحلام.

ولا ينبغي النظر إلى النجاح الغير عادي للشامانية المدنية على أنه أمر محدود بدوره الطبي، كما يقول الباحث "جان بييرشوميل"، فمن الواضح أن الشامانية: قد أصبحت الآن جزءًا من الحياة السياسية لمعظم دول أمريكا اللاتينية، فالعديد من المرشحين للوظائف المهمة يتقدمون ويفوزون بها (جزئيًّا على الأقل) على أساس أنهم على علاقة (حقيقية أو غير حقيقية) بالشامانيي المعروفين.

ففي مايو 1991 دعي "البرتو فوجيموري" رئيس بيرو شخصيًّا إلى "ليما" المعالج البرازيلي الشهير لعلاج "فوجيموري" من كسر كان مؤلمًا للغاية، وقد امتلأ إستاد "ليما" الكبير بعشرات الآلاف من المرض الذين جاءوا للعلاج بجانب رئيسهم، وعلى الرغم من أن معجزات البرازيلي كانت محبطة إلا أن خزانته كانت تحوي معجزات أخرى: إذ إن تمثالين من تماثيل العذراء في ميناء "كالو" بالقرب من "ليما"، بدأ في البكاء وبعدها كان آلاف المؤمنين المحبطين من صانع المعجزات البرازيلي قد اندفعوا ليتجمعوا أمام التمثالين الباكيين، وكان من بينهم الرئيس "فوجيموري"، وقد اعترف فيما بعد بأنه طلب من العذراء المساعدة في إعطاء الأمل للشعب.

وإن أكثر الكلمات شيوعًا في الاستخدام لتسمية الشامانية قد اشتقت في الأصل من المصطلح التركي (كام kam)، حيث تدين أشكال الشامانية في وسط آسيا في ما يتعلق بتجانسها النسبي إلى تقليد عام مشترك وإلى تأثيرات الديانة الإسلامية، التي تتميز في اتجاهين واضحين يتوافقن مع مجموعتين عرقيتين تسكنان هذه المنطقة، المجموعة الأولى تتحدث التركية، والأخرى تتكلم الإيرانية.

والواجبات التي يشترك فيها كافة الشامانيين في منطقة وسط آسيا هي تشخيص أسباب المرض وعلاجها، البحث عن الأشخاص المفقودين، الكشف عن الأشياء المسروقة، وهذه الواجبات التي يقومون بها قد تقلصت إلى حد كبير

البداية البحثية الحقيقية لمحاولة إثبات أن كل هذا هو محض هراء، فكانت عندما بدأ "تايلورٍ" (1871) يؤكد أن الشاماني ليس إلا وارثا لتركة من الأمراض العصبية الهستيرية كالصرع

عندما بدأ العرافون والمعالجون يحلون محلهم، والانتشار الشعبي هنا ليس بالضرورة في صالح الشاماني، لأن العرافين والمطببين يجرون بدورهم مراسم احتفال تشبه بدورها طقوس الشاماني. ومثله فإنهم يحاولون الاتصال بالأرواح.

أما البداية البحثية الحقيقية لمحاولة إثبات أن كل هذا هو محض هراء، فكانت عندما بدأ "تايلور" (1871) يؤكد أن الشاماني ليس إلا وارثًا لتركة من الأمراض العصبية الهستيرية كالصرع، وقد سارع كثير من الباحثين الروس (ومنهم خاروزين وميخائيلوفيسكي وأنوكسين وبوتانين وكاجاروف وكسينوتوف وغيرهم) إلى متابعة هذه الدعوى، كما استمر البعض منهم (فينشتاين والكشيف وميخائيلون وسميتشوف) في دعم هذا الجدال وتأييد، حتى بالرغم من أنه قد ثبت بالفعل خطؤه بعد تفنيده منذ زمن طويل.

واعتمادًا على المعلومات التي جمعت من منطقة وسط آسيا، يعد حامل الأرواح التي يتم التحرر منها من خلال الممارسات الشامانية محملاً بالعلل والأسقام، والحقيقة أن هذا المرض يعد أمرًا لابد منها منه، ويري فيه الأوزبك والقرغيز عرفانًا بالجميل وعلامة على رضاء الأرواح، وحتى وإن كان واضحًا بالنسبة للجميع أنه يتم استدعاء الشاماني لكي يتأكد من التشخيص الصحيح، ويعتقدون أن الأرواح لا بد وأن تحمل الشاماني الصغير إلى العالم السفلي وأن سبب المرض يكمن في كونها تخفيه هناك في خلال أغصان شجرة الحياة، وأن توفر له القوة وأن تحيطه بالرعاية والحنان بغرض إعادة خلق هذا الشخص المختار.

إنها تقطع جسمه إربًا وتطهوه، حتى تستطيع أن تأكل اللحم، ثم إنها بعد ذلك تقوم بتلفيق أعضاء معينة من الجسد مع بعضها البعض، وذلك قبل أن ترده إلى الحياة مرة أخرى.

ويحدثنا "رادولف" (1893) عن شامانية من الأوزبك اسمها "أوتشيل" من منطقة "سمرقند"، هذه المرأة كانت روحها الحارسة (حسب أقوال رجل عجوز صالح هناك) أنها كانت لرجل تقي أمرها أن تصبح شامانية حتى تنقذ البشر، لقد جنت هذه المرأة وصار سلوكها مثيرًا للخزي والعار، حتى بلغ بها الأمر إلى حد إلقاء ابنها من سطح الدار، حتى طفح الكيل بزوجها فقيد يديها ورجليها وحبسها في غرفتها.

ويقول القوم: إن تلك المرأة التي حبسها زوجها في الدار خشية أن تستمر في ممارساتها المخبولة قد تمكنت من الفرار برغم القيود، وذلك أن روحها الحارسة قد أطلقت سراحها عبر المدخنة، وهذه الروح، أتت من رجل تقي صالح في زعمهم، فاصطحبها معه إلى الجبال المحيطة، وهناك تولي مهمة تعليمها وتعريفها بالأزمنة الخوالي، وعلمها الكثير من الممارسات الشامانية: "ابتهلي من أجل الحياة الحاضرة، ومن أجل الحياة الآخرة، ابتهلي من أجل الناس، ابتهلي من أجل السعادة والعمر المديد، ابتهلي من أجل الرخاء والخصوبة".

وفي هذا ما يدل على نوع من التعليم تم تلقينه من خلال الأحلام، وهذه الأحلام لا تعلب دورًا مهمًّا في الممارسات الشامانية فحسب، بل إن لها دورًا مهمًّا جدًّا في الإدراك بكافة المعارف الخاصة بالشعيرة الشامانية.

وفي الواقع ليس هناك تقليد معين لتلقي الشخص المختار تعاليمه عن طريق شاماني ذو خبرة، فهذا الاتجاه مشكوك في صحته، ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال الإنسان الطموح من السؤال الاستفسار عما يعن له، الحقيقة أن الأمر كله يتوقف على استعداده لاعتناق دوره ...

إلا أن معظم المعلومات الاثنوجرافية التي تشكل حيثيات الأحكام في موضع شخصه الشاماني إنما أتت من مجتمعات تطبعت ثقافيًّا أو – على الأقل تمر بعملية تحول ثقافي عديد التسارع – مثل منطقة سيبيريا (وهي إحدى المناطق المحقق وجود الشامانية بها) كانت في غمار مرحلة تحول ثقافي في الوقت الذي بدأت فيه أول البحوث، والأمر ذاته بالنسبة لأمريكا الجنوبية، ومن هذا المنظور يمكن اعتبار الشاماني بأنه شخص هامشي، شخصيته غير مستقرة، يعاني من عدم القدرة على الاندماج والتوافق لهذا فهو ينزع إلى العزلة والتصوف، ويجد في الشامانية وواجباتها حلاً لمشكلاته الشخصية وأزماته النفسية، إلا أنه في بعض الأماكن في أمريكا الجنوبية يكون للشاماني تألقًا اجتماعيًّا أكبر، إذ إن استدعائه ليؤدي الشعائر الشامانية يتم عن طريق الجماعات وليس الأفراد، وحتى في أثناء تلك الشعائر التي يؤديها فإنه يتحول إلى تجسيد حي لكل قيم جماعته، ومثل جميع الشعائر الأخرى، فإن شكل هذه التجربة ومضمونها وقيمها الروحية والمادية تحتشد في أنماط ثقافية، هذه الأنماط يجب أن ينقلها الشاماني المخصوم في النهاية إلى الشاماني المبتدئ، الذي سوف تحكم الجماعة على قدراته في نهاية الأمر، وهذا التدريب على الشامانية يتطلب قدرات غير عادية مثل الصوم والنسك والاعتزال والإمساك عن الممارسات الجنسية، هذا بالإضافة إلى المجهود العقلي الذي قد يكون أكثر صعوبة، حيث يجب أن يظهر الشاماني قدرًا هائلاً من البراعة الحرفية، ولابد أن يمتلك الشاماني سعة الخيال والقدرة على الابتكار، وأن يكون قادرًا على ارتجال التراتيل وإيجاد مساهمات شخصية إلى التراث

الشاماني ليس إلا وارثًا لتركة من الأمراض العصبية الهستيرية كالصرع

الجمعي للطقوس المقدسة.

وفي حقيقة الأمر فإن اختيار الشاماني يتحكم فيه بالدرجة الأولى المجتمع الذي يكافح تحت وطأة تغييرات اجتماعية وثقافية لا ترحم، وتصرفات الأفراد الذين يعانون من هذا التغيير، وصنع الشاماني هنا يعد استجابة للقلق الاجتماعي والنفسي من جراء هذا التغيير، وفي هذه الحالة فإن تبني دور الشاماني (الذي يتحقق بدرجات متفاوتة من النجاح) يتم السعي وراءه وتبريره كدفاع ضد أحداث لا يمكن السيطرة عليها، كما يؤكد "ليفي ستراوس" في نص شهير له لكي يضرب مثلاً على الدور الذي تلعبه الشامانية في مواجهه نزعات علم النفس المرضي، فإنه إذا كانت نسبة حدوث العصابيات والذهانيات تحت تأثير الاحتكاكات الحضارية، تتجه إلى الارتفاع في الجماعات التي لا تلعب فيها الشامانية أي دور، بينما في المجتمعات الأخرى فإن الشامانية نفسها هي التي تتطور، وإنما بدون نمو مناظر في المشكلات العقلية.

الذين تمكنوا من حضور بعض جلسات الشاماني، قد استطاعوا تسجيل شيء من التراتيل التي تعد جوهر هذه الجلسات، والكلام عن هذه الجلسات وما يدور فيها شرحه يطول لذلك سوف نقتصر هنا على تحديد الملامح الرئيسية لتلك الجلسات.

إن أساس هذه الجلسات كان يتجلي في هذه الحقبة التي كان يتمتع فيها الشامني بالقدرة على تجسيد الأرواح، كما أن تلك الجلسات المحدودة قد خلت بالطبع من التأثيرات المسرحية الأخرى على غرار قرع الطبول والرقص والألاعيب السحرية بغرض تهيئة الحاضرين، وتبدأ الأرواح في الكلام من خلال الشاماني، وأيضًا تجري حوارًا مع المشاهدين وتلقي بعض التنبؤات بالمستقبل، ثم تبدأ الروح بتعريف نفسها للحضور (من خلال صوت الشاماني الرخيم)، ويضع الشاماني في أثناء هذه الجلسة غطاء الرأس المعروف باسم "السيميدي"، وهو أشبه بـ(الطرحة) التي تغطي وجه العروس، وهذا يعني انفصاله عن العالم، وتحوله في تلك اللحظة إلى بلورة شفافة جاهزة لاستقبال كل ما تبثه الروح التي تتقمص جسده، وفي نهاية الجلسة يرفع هذه الطرحة ويبدأ في العودة إلى حالته الطبيعية.

وكان الملفت للنظر بشكل مثير في خلال هذه الجلسات هو تكرار العديد من الكلمات والتعبيرات الروسية الأصل مثل (الطبيعة السرمدية لجواز المرور بين العوالم – الرفيق الموثوق به – آلاف من الرجال الروس، مصدر كل الآلات الثقة في محركات القوارب)، الأمر الذي يفتح الباب أمام الباحثين للعديد من الاحتمالات.

على أية حال فإن الحدود التي توضع معالم المجازات والتصورات الذهنية عن موضوع الشامانية دائمًا تميز مجالاً تثور فيه تساؤلات معينة لابد من الإجابة عليها من خلال طريقة معرفية، يصبح فيها ما يقبله العقل واقعًا في نطاق الحقيقة، ومن ثم فإن أنشطة الشاماني لابد أن تربط العقل بالواقع الاجتماعي والانثربيولوجي وأيضًا السياسي، فهو مع انتشاره يعد موضوعًا معرفيًّا وأخلاقيًّا في الوقت نفسه.

وإذا وجد أن موضوع الجنون بكافة تعبيراته الاجتماعية يمثل جزءًا متممًا للتصور البشري أو تمثيلها في المجتمعات الشامانية على الأقل، يمكننا وقتها أن نفوس الجنون في التصنيفات المرضية لهذه المناطق، أي أنه عندما يتم الربط الصريح بين الجنون وبين أنثربولوجيا هذه المجتمعات، فإن تطورها (كجزء من التطور العالم للبشرية) سوف يتم تفسيره بمجموعة من التجليات المرتبطة بأسلوب وجود المجتمع بأكمله.

وبينما تنتظر بعض هذه المجتمعات وبعض الباحثين كذلك اليوم الذي سوف تأتي أرواح أخرى وآلهة أخرى لتغني ترانيمها وترقص بين الناس، وتنتظر بعد كل هذا وفي حينه التهليل والتبجيل بين الجموع، فإن تلك الأصوات التي ألهمت الشاماني لأزمان قد أصبحت اليوم تمتمة خافتة لا تكاد تسمع.

كما أن كافة الإيهامات التي تضاخمت كثيرًا جدًا قد وقعت في المأزق المعروف بين الإيمان والمعرفة، لكونها تشتمل على الادعاء بما يؤمن به الآخرون، وتصديق ما يدعيه آخرون غيرهم، هذه الإيهامات سوف تختفي هي الأخرى بلا جدال ...

هكذا يتحدث العقل، وهكذا يقول صوت مجتمعات عقد الصلح مع نفسها ومع الطبيعة منذ زمن طويل، وأن آخر جنود الهذيان الإثنولوجي والسياسي قد دفن أحقاده منذ زمان أطول ....